الخطبة القاصعة
دعوة للتأمل الذاتي والإصلاح الخلقي

Self-Reflection and Moral Reform:
The Thunderous Sermon as a Model

م.م. زهراء ساجد علي الزبيدي
مكان العمل: كلية التربية الأساسية /الجامعة المستنصرية
Researcher: Asst. Lecturer Zahraa Sajid Ali Al-Zubaidi
Affiliation: College of Basic Education,
Al-Mustansiriyah University
Email: sajidzahraa23@gmail.com

ملخص البحث

يركز هذا البحث على تحليل العلاقة العميقة بين التأمل الذاتي والإصلاح الخُلقي في نهج الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، من خلال مجموعة نصوص مختارة من نهج البلاغة.

وقد تم تقسيم البحث إلى محورين رئيسين: الأول تناول مفهوم التأمل الذاتي باعتباره عملية مراجعة داخلية مستمرة تهدف إلى كشف العيوب وتصحيح السلوك، والثاني تناول الإصلاح الخُلقي باعتباره نتيجة طبيعية لهذا التأمل حين يُمارَس بصدق ووعي.

ومن خلال البحث والدراسة ، ينجلي أن الإمام علي عليه السلام لم يعرض التأمل الذاتي كمجرد حالة نفسية وذاتية ، بل جعله مرتكاً سلوكياً في بناء الاخلاق الفردية واصلاحها ، وأكد (عليه السلام)على التواضع ومحاسبة النفس ، والحذر من التكبر . كما أوضح عن آثار الانحرافات الخُلقيّة ودورها في إفساد العقول والنفوس مثل العصبية، والغرور.

وقد توصل البحث إلى أن الإصلاح الحقيقي للنفس يبدأ من داخل الفرد ، كما لا يمكن لأي مشروع أخلاقي أن يكون متينًا ما لم يُبنى على تأمل داخلي عميق وصادق ، فالمنظومة الأخلاقية عند الإمام علي عليه السلام ترتكز على ربط التزكية الداخلية بالسمو الخُلقي، ضمن إطار تربوي متوازن يوجه الإنسان نحو الفضيلة ويقيه من السقوط في الرذائل.

الكلمات الافتتاحية : (التامل ، الذات ، الإصلاح ، الاخلاق ، الخطبة الصاعقة).

Research Summary:

This research focuses on analyzing the profound relationship between self-reflection and moral reform in the approach of Imam Ali ibn Abi Talib (peace be upon him), through a selection of texts from Nahj al-Balagha.

The study is divided into two main axes: the first addresses the concept of self-reflection as an ongoing internal process aimed at identifying flaws and correcting behavior; the second explores moral reform as a natural outcome of sincere and conscious self-reflection.

Through research and analysis, it becomes clear that Imam Ali (peace be upon him) did not present self-reflection as merely a psychological or personal state, but rather as a behavioral foundation for the development and refinement of personal ethics. He emphasized (peace be upon him) humility, self-accountability, and caution against arrogance. He also highlighted the effects of moral deviations and their role in corrupting minds and souls, such as fanaticism and vanity.

The research concludes that true self-reform begins within the individual, and that no ethical project can be solid unless it is built upon deep and sincere internal reflection. Imam Ali's moral system is founded on linking inner purification with moral elevation, within a balanced educational framework that guides the individual toward virtue and protects them from falling into vice.

Opening Words: (Contemplation, The Self, Reform, Morality, The Thunderous Sermon).

توطئة
شذرات من الخطبة القاصعة

الخطبة القاصعة هي إحدى خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، الواردة في كتاب نهج البلاغة، وقد عُرفت في بعض نسخ الكتاب برقم ١٩٢. وتُعد هذه الخطبة من أطول وأعمق خطب الإمام، حيث يشع منها نور الحكمة ويذهل العقل من تناغم كلماتها. فهي ليست مجرد نصوص بل هي موسوعة شاملة من القيم الأخلاقية والاجتماعية التي تهدف إلى معالجة النفس البشرية والمجتمع بشكل عام.

يفتتح الإمام عليه السلام خطبته بالحديث عن خطورة التكبر وآفة الغرور، مستشهدًا بقصة إبليس كتحذير. فقد قاده غروره وتكبره إلى الطرد من رحمة الله بعد أن كان في مقام الملائكة، بسبب رفضه السجود لآدم. إذ رأى إبليس نفسه أفضل من آدم بحكم أنه مخلوق من نار، بينما آدم مخلوق من طين. وكان هدف الإمام من ذكر هذه الواقعة التاريخية هو تذكير الناس بضرورة الابتعاد عن الغرور وتجنب الاستعلاء، لأن التكبر يؤدي حتمًا إلى العقاب الإلهي.

ثم انتقل الإمام إلى سرد قصص الأمم السابقة التي هلكت بسبب طغيانها وتكبرها، مثل عاد وثمود وفرعون. بعد ذلك، تحدث الإمام عن صفة التواضع وأهميتها في حياة المؤمن، باعتبارها إحدى الصفات الأساسية للمؤمن الحقيقي. كما ركز على أهمية الزهد في الدنيا، مؤكدًا أن الإنسان مخلوق من تراب وسيعود إليه، وأن حياته قصيرة وزائلة، وتذكير الموت هو وسيلة لتوجيه النفوس نحو الآخرة والعمل الصالح بدلاً من الانشغال بالدنيا وملذاتها.

وفي ختام خطبته، لم يغفل الامام (عليه السلام) عن الحديث عن القيم الاجتماعية والأخلاقية، موصلًا إياها بأهمية وحدة الأمة ، حذر من الفتن التي قد تؤدي إلى تفرُّق الأمة، مؤكدًا على أن قوتها واستقرارها تكمن في وحدتها.

اهم الأسباب القاء الخطبة

أن أهل الكوفة كانوا قد فسدوا في آخر خلافة أمير المؤمنين، وكانوا قبائل في الكوفة، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمر بمنازل قبيلة أخرى، فينادي باسم قبيلته: يا للنخع! مثلا، أو يا لكندة نداء عاليا يقصد به الفتنة وإثارة الشر، فيتألب عليه فتيان القبيلة التي مر عليها، فينادون: يا لتميم! ويا لربيعة! ويقبلون إلى ذلك الصائح فيضربونه، فيمضي إلى قبيلته فيستصرخها، فتسل

السيوف وتثور الفتن، ولا يكون لها أصل في الحقيقة إلا تعرض الفتيان بعضهم ببعض [١].

السبب في تسمية هذه الخطبة بهذا الاسم :

وقيل سُمّيت الخاصة بـ القاصعة ، نسة الى المعنى اللغوي لمفردة (القصع) التي تزخر بدلائل عديدة - تنسجم مع فحوى الخطبة ، ومن ابرز تلك المعاني :

- الاهلاك : أي هلاك حجج ابليس وجنوده ، بما تحمله من حجج قوية تفند باطلهم وتبيّن عواقب افعالهم .

- الاذلال والاهانة : لان الخطبة تصبو الى اذلال المتكبرين وكسر غرورهم وغطرستهم واستكبارهم واستعلاوهم من خلال بيان خطورة ، ذلك وعواقبها الوخيمة .

- التتابع : لان النصائح والمواعظ التي حث عليها الامام في الخطبة كانت بشكل متتابع ومترابط ؛لاثارة النفس شيئا فشيئا [٢].

بينما ذهب قوم اخر في السبب تسمية الخطبة بالقاصعة

كان امير المومنين علي ابن ابي طالب (عليه السلام) يخطب على الناقة ويقصع بجرتها، فعرفت هذه الخطبة بالقاصعة لملازمة قصع الناقة [٣].

المحور الأول : مفهوم التأمل الذاتي (ماهية الذات الإنسانية): مقاربات دينية وفلسفية ونفسية

وفي اطار البحث والدراسة في ماهيّة الذات الانسانية يشكّل مفهوم التأمل الذاتي احد المحفزات الرئيسية للسلوك ، وقد سعى المفكرين والفلاسفة وعلماء النفس الى البحث في الذات الانسانية من جوانب متعدده فالسيد محمد محمد صادق الصدر يرى ان الذات تمثل البعد الروحي والتكامل الذاتي ، إذ يقول : (كلّ ما لدى الإنسان من نِعَمٍ إلهيّةٍ داخليّة، وهي كلّ شيء في حياة الإنسان، فمنها ينظر إلى الحياة، ومنها يعلم، ومنها يفهم، ومنها يتكلّم، وعليها يعتمد في سائر سلوكه وتصرفاته، ومنها يستمدّ وعيه وإدراكه للحقائق والوقائع، وكلّ ما يدور حوله

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه:١٣/١٦٧،شرح نهج البلاغة ، ابن ميثم البحراني :٤٠/٢٣٤.

(٢) لسان العرب ، ابن منظور، القاموس المحيط ،

تاج العروس من جواهر القاموس: محمّد مرتضى الحسيني الزَّبيدي ، تحقيق: جماعة من المختصين دار الهداية، ودار إحياء التراث ، ١٣٨٥ - ١٤٢٢ هـ ١٩٦٥ - ٢٠٠١ م: ٢٢/٢٠-٢٢.

(٣) ينظر : معارج نهج البلاغة ، علي بن زيد البيهقي ، تحقيق : محمد تقي دانش ، اشراف : السيد محمود المرعشي ، مكتبة اية الله العظمى المرعشي النجفي ، الطبعة : الأولى ،١٤٠٢: ٣٥٤.

من حوادث. فالذات هي المركز الرئيسي للإنسان الحيّ)[1].

فتعريف السيد الصدر يمثل بُعدًا تكامليًا عميقًا في إطار العقل والوعي والنفس والإدراك، ويعطيها بعدًا روحيًا ومعرفيًا.

بينما يرى علماء النفس بان الذات تمثل كيانا دينامكيا يتاثر بتفاعلات البيئة والمجتمع ، وهذا مايوكده الدكتور حامد عبد السلام زهران بقوله :(الذات هي كينونة الفرد أو الشخص. وتنمو الذات وتنفصل تدريجيا عن المجال الإدراكي، وتتكون بنية الذات نتيجة للتفاعل مع البيئة، وتشمل الذات المدركة، والذات الاجتماعية، والذات المثالية، وقد تمتص قيم الآخرين، وتسعى إلى التوافق والاتزان والثبات وتنمو نتيجة للنضج والتعلم، وتصبح المركز الذي تنظم حوله كل الخبرات) [2].

ويوضّح هذا التعريف بأن الذات تمثل بنية معرفية تتشكل من الخبرات والتفاعلات مع الواقع البيئي.

وعرفها الفلاسفة ، محمد تقي مصباح اليزديّ، بأنها:(انعكاس لكل مابداخل الانا ؛ وعي تمثل وجهة معرفة الانسان من زاوية كونه متوفرا على استعدادات وطاقات تمهد له سبيل التكامل الإنساني)[3].

وفي المفهوم الفلسفي يظهرارتباط الذات بالوعي والتحقيق الأخلاقي والمعرفي، تمهيدا إلى الكمال الإنساني.

بينما الإمام علي عليه السلام عالج مفهوم الذات من ضمن اطار أخلاقي دقيق، يربط بين التأمل الذاتي والانضباط السلوكي ، وبيّن ان السلوك الإنسان لا ينشأ من الفراغ، بل هو ناشا نتيجة تفاعلات داخلية يحكمها العقل العملي ، فإذا أحبّ الإنسان ذاته بوعي وتأمل، دون أن تغلب عليها الشهوات والأهواء، فإنه ينتهج سبيل الفضيلة؛ أما إذا هيمنت عليه دوافع الأنانية والرغبات، فبالتالي انحرف نحو الرذيلة.

رغم تباين زوايا النظر لهذا المفهوم -الذات الإنسانية- الا انه يتفق في كونه مفتاحًا لفهم السلوك البشري وتوجيهه، والتأمل الذاتي في كل هذه المقاربات يمثّل آلية مركزية للوعي

(١) حب الذات وتاثيره في السلوك الإنساني : السيد محمد محمد صادق الصدر ، تحقيق :موسسة المنتظر لاحياء تراث ال الصدر في قم ، طبع موسسة البصائر ، لبنان ، الطبعة : الأولى :٤٧.

(٢) التوجيه والإرشاد النفسي: الدكتور حامد عبد السلام زهران ، الناشر: عالم الكتب ، الطبعة: الثالثة: ٩٥.

(٣) معرفة الذات لبنائها الجديد ، محمد تقي مصباح اليزدي ، المترجم الشيخ محمد محمد علي التسخيري ، دار النشر موسسة في طريق الحق ، ايران-قم ، الطبعة : الأولى : ١٣.

والإصلاح والتكامل.

إن الجمع بين هذه الرؤى يُنتج فهماً أكثر تماسكًا للذات، بحيث لا تُختزل في البعد النفسي فقط، ولا تُحصر في البعد الروحي فقط، بل تُفهم كـ بنية مركبة تتداخل فيها العناصر المعرفية، والروحية، والاجتماعية، والأخلاقية.

لذلك روضّ الدين الإسلامي الذات الانسانية على الزهد بالحياة وملذات الدنيا ، وعلى السعي إلى المعارف الروحية والمرضاة الإلهية ، فبقدر ما يرتفع المرء عن الحاجات البهيمية يصبح إنسانا .

وحض الشارع على الزهد ، قول النبي (صل الله عليه واله وسلم) : « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب » .

لأن المادة والشهوات غالبا ما تصد عن المعاني الروحية الإلهية [١] ، قوله تعالى « قد أفلح من زكّاها . وقد خاب من دسّاها »[٢] .

المحور الثاني : من التزكية إلى السلوك: العلاقة بين الذات والأخلاق في خطب نهج البلاغة.

المراد بالإصلاح الخلقي هو تهذيب النفس واعادتها الى مسارها الفطري السليم ، أي دراسة سلوك الانسان وافعاله ، والحكم عليها بانها خلق حسن او سيء ، فالغاية من علم الاخلاق هو تجويد الأفعال انسان بما هو انسان [٣]. أي تهذيبها وتعديلها الى الوسط من الافراط والتفريط ولايمكن لاي فرد ان يحقق كماله الذاتي الابتهذيب اخلاقه وتنقية قلبه من الصفات الذميمة ، فالاخلاق ليست مجرد سلوكيات ظاهرة بل هي انعكاس لما في داخل النفس ، واذا لم يُصلح الانسان باطنه فلن يستطيع اصلاح ظاهره[٤] .

وفي هذا السياق يوجّه امير المومنين عليه السلام في خطبته نصائح جوهرية لا يمكن الاغفال عنها فيجعل مفهوم الذات شرطا أساسيا للإصلاح الخلقي ، ويعد السلوك الأخلاقي (مرآة للذات الإنسانية) فجميع التصرفات الإنسانية للفرد تعكس ما في داخله من تزكية أو فساد ، فيقول عليه السلام :

(١) نهج البلاغة ، نبراس السياسة ومنهل التربية ، مجموعة مؤلفين، بنيادنهج البلاغه ،١٣٦٢: ٣٠٥.

(٢) سورة الشمس :الاية ١٠.

(٣) ينظر: فلسفة الاخلاق في الإسلام ، محمد جواد مغنية ، دار الجواد ، بيروت ، الطبعة : الثانية ، ١٤٠٤-١٩٨٤: ١٢. وتهذيب الاخلاق (جامع السعادات) ، محمد مهدي النراقي ، تقديم :محمد رضا المظفر ، موسسة الاعلمي ، بيروت ، طبعة : السادسة ،١٤٠٨-١٩٨٨: ١/٥٤-٥٥.

(٤) ينظر : أساس التقديس، فخر الدين الرازي ، تحقيق: أحمد حجازي السقا، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩١.

(فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس، إذ أحبط عمله الطويل، وجهده الجهيد... عن كبر ساعة واحدة)[١].

يوضح الامام (عليه السلام) في هذا النص أن إبليس، رغم طول عبادته ؛ الا انه كان يعاني من فساد ذاته الذي يتمثل في الكبر والتكبر، وهذا الكبر أدى إلى رفضه امر ربه وهو السجود لآدم عليه السلام، وبالتالي سقوطه في دائرة المعصية والرفض الإلهي ، فستدل الامام عليه السلام بإبليس كنموذج واضح لكيفية فشل السلوك الظاهري حين تكون الذات الباطنية فاسدة ، فالإصلاح الأخلاقي يبدأ من تزكية الذات أولا لأن السلوك الخارجي هو انعكاس مباشر لحالة الذات الداخلية.

يعتمد الإمام (عليه السلام) على مبدأ التدرج في تهذيب النفس، فلا يطلب من الفرد الكمال مرة واحدة، بل يدعوه إلى مراقبة سلوكه وتصرفاته باستمرار، وتغييره خطوة فخطوة، وهذا ما نلمسه في قوله: (إنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنةً يوم الفزع الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق[٢])[٣]

إن هذا النص يُظهر بوضوح أن التزكية مشروع عمر، وعمل متواصل، يحتاج إلى "رياضة" مستمرة للنفس، لتكون قادرة على الثبات أمام الفتن، وعلى التمييز بين الخير والشر، وعلى تجنّب السقوط في مستنقعات الأهواء ، ويشير الامام (عليه السلام) بقوله:

(فانظروا إلى مواقع نعم الله عليهم حين بعث إليهم رسولاً، فعقد بموضعه أسبابهم، وجمع به أهواءهم، كيف أصبحت حالهم، وقد كان لهم من النعمة ما لم يشكروا، ومن البلاء ما لم يصبروا)[٤]

بين الامام في هذا النص حالة الناس الذين أُرسل إليهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقد كانوا ممن أنعم الله عليهم بنعم عديدة ، إلا أنهم لم يزكّوا نفوسهم بالشكر والصبر ، فعدم تزكية النفوس أدى إلى انحراف سلوكهم ومواقفهم، فبدلاً من الثبات والصبر على البلاء، سقطوا في حالة الاضطراب والفتنة.

وفي ضوء التأمل في النصوص الأخلاقية للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، يظهر منهجٌ متكامل ينتقل فيه الإمام من تزكية النفس إلى تقويم السلوك الظاهر، ومن الاهتمام بالذات الباطنة

(١) نهج البلاغة
(٢) المزلق : موضع الخطر والشدة والابتلاء والانزلاق فيه يوم الفزع الاكبر ،
(٣) نهج البلاغة
(٤) نهج البلاغة

إلى ترسيخ القيم الأخلاقية في المجال الاجتماعي. فعندما يقول (عليه السلام): (وبالتواضع تتمّ النعمة)[١]، لا يكتفي بتوصيف التواضع كسلوك اجتماعي محبّذ، بل يؤسسه على قاعدة روحية داخلية ترتبط بكمال النعمة الإلهية، فيُفهم التواضع هنا على أنه ثمرة من ثمار تهذيب النفس وتطهيرها من أمراض الكبر والعُجب.

يُؤكّد الإمام على أن الأخلاق لا تُبنى من مظاهر شكلية، بل تبدأ من عمق الذات، حيث تنشأ القيم وتنضج المشاعر وتتحدّد النيّات.

ثم ينتقل الإمام إلى التحذير من الكبر، فيقول: (فالله الله... وسوء عاقبة الكبر) [٢] مشيرًا إلى أن الاستعلاء والغرور يُفسدان جوهر النفس ويشوّهان السلوك، مما يؤدي إلى عزلة الإنسان وفساد علاقته بالمجتمع وربّه. ومن هنا، يتّضح كيف يُزاوج الإمام بين التهذيب النفسي الداخلي والضبط الأخلاقي الخارجي، في إطارٍ يربط الفرد بمسؤوليته التربوية والأخلاقية الشاملة، ويجعل من القيم الأخلاقية نِتاجًا طبيعيًا لتزكية الذات لا مجرد التزام سلوكي شكلي.

(١) نهج البلاغة
(٢) نهج البلاغة

الخاتمة

من خلال قراءة الخطبة وتحليلها، يتضح أن الإمام علي (عليه السلام) قد أسّس منظومة أخلاقية تربوية متكاملة، تبدأ من معرفة الذات وتأملها ومحاسبتها وتزكيتها، لتنتهي بـ سلوك خارجي أخلاقي يُعبّر عن تزكية النفس، يساعد في بناء فرد متوازن ومجتمع فاضل.

وأوضح الإمام (عليه السلام) أن لا قيمة للسلوك الظاهري إن لم يكن نابِعًا من ذات سليمة طاهرة ، خالية من الغرور والانانية والتكبر، متّسمة بالتواضع، محكومة بالعقل، ومزكّاة بالإيمان.

كما أشار إلى أن التكبر والعصبية والغرور ليست مجرد صفات مذمومة، بل أمراض أخلاقية مدمرة للنفس الداخلية للفرد، تُفسد العلاقات الإنسانية، وتُغضب الله تعالى، وتُسقط أصحابها في هاوية الفتنة.

وعليه، فإن الخطبة القاصعة ليست مجرد بيان خطابي أو وعظي، بل هي خارطة متكامله للإصلاح الذاتي والمجتمعي، كما تقدم رؤية عملية لبناء الإنسان الكامل، من خلال ربط التزكية بالسلوك، والباطن بالظاهر، والذات بـالأخلاق، وهو ما يجعل فكر الإمام علي (عليه السلام) صالحًا لكل زمان ومكان، ومُلهمًا في مسيرة البناء الأخلاقي والروحي للأفراد والأمم على حد سواء.

المصادر

١. القرآن الكريم.
٢. نهج البلاغة ، جمعه ونسقه الشريف المرتضى ، اشراف الطباعة عبدالله اعيس الطباع -عمر اعيس الطباع ،موسسة المعارف ، بيروت ،الطبعة :الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
٣. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه.
٤. شرح نهج البلاغة ، ابن ميثم البحراني ، دار الثقلين للنشر ،بيروت -لبنان ، الطبعة :الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
٥. تاج العروس من جواهر القاموس: محمّد مرتضى الحسيني الزَّبيدي ، تحقيق: جماعة من المختصين دار الهداية، ودار إحياء التراث ، ١٣٨٥ - ١٤٢٢ هـ ١٩٦٥ - ٢٠٠١ م.
٦. معارج نهج البلاغة ، علي بن زيد البيهقي ، تحقيق : محمد تقي دانش ، اشراف : السيد محمود المرعشي ، مكتبة اية الله العظمى المرعشي النجفي ، الطبعة : الأولى ،١٤٠٢.
٧. حب الذات وتاثيره في السلوك الإنساني : السيد محمد محمد صادق الصدر ، تحقيق :موسسة المنتظر لاحياء تراث ال الصدر في قم ، طبع موسسة البصائر ، لبنان ، الطبعة : الأولى.
٨. التوجيه والإرشاد النفسي: الدكتور حامد عبد السلام زهران ، الناشر: عالم الكتب ، الطبعة: الثالثة.
٩. معرفة الذات لبنائها الجديد ، محمد تقي مصباح اليزدي ، المترجم الشيخ محمد محمد علي التسخيري ، دار النشر موسسة في طريق الحق ، ايران- قم ، الطبعة : الأولى .
١٠. نهج البلاغة ، نبراس السياسة ومنهل التربية ، مجموعة مؤلفين، بنيادنهج البلاغه ،١٣٦٢.
١١. فلسفة الاخلاق في الإسلام ، محمد جواد مغنية ، دار الجواد ، بيروت ، الطبعة : الثانية ، ١٤٠٤-١٩٨٤.
١٢. تهذيب الاخلاق (جامع السعادات) ، محمد مهدي النراقي ، تقديم :محمد رضا المظفر ، موسسة الاعلمي ، بيروت ، طبعة : السادسة ،١٤٠٨-١٩٨٨.
١٣. أساس التقديس، فخر الدين الرازي ، تحقيق: أحمد حجازي السقا، دار الكتب العلمية، بيروت.